الحِجاج في أمثال مقامات الحريريّ: مقاربة تداوليّة

هدى صالح شنيور* د. أحمد علي جودة**

تاريخ وصول البحث: 2025/4/21م تاريخ قبول البحث: 2025/7/1م

الملخص

هدفت هذه الدِّراسة إلى استكشاف تأثير الأمثال الشَّعبيَّة بوصفها أداة حِجاجيَّة في مقامات الحريريّ، وبيان دورها في التّأثير والإقناع وصولاً إلى الإذعان، فضلاً عن تعزيز تجربة الكشف المعرفي لدى المتلقي.

اعتمد الباحثان في دراستهما على المنهج التداولي، الذي يسلِّط الضُّوء على دور الأمثال الحجاجيّ، وتهدف إلى التَّأثير في المُتلقي، وتحفيز ردود أفعاله بما يُفضي إلى تغييرات في سلوكه، بناءً على الأطُر التي تفرضُها الأمثال.

وأظهرت نتائج الدّراسة أنَّ (الحريريّ) كان يعمد إلى استخدام الأمثال في مقاماته أداة حجاجيَّة فعّالة، تلعب دوراً مهماً في عرض الأفكار وتوجيه الحوار والإقناع. وقد تمكن من إبراز قدرة الأمثال على التأثير، وجعل لها سلطة قوية تُستخدم كبراهين وأدلة، سواء في المقدّمات أو في النتائج الحجاجيَّة. كما أثبتت الدراسة فاعلية الأمثال في المخاصمات وسياقات الحوار الأخرى مثل النقد السياسي، والاجتماعي، والأدبي، حيث تُستخدم لأغراض متعددة تشمل الدّفاع، والهجوم، والرد، على التّهم، والتّبرير، وأحيانًا التّخويف، والتّهديد. وقد ساهمت هذه الأمثال في تحقيق أهداف البطل في مقامات (الحريريّ)، سواء في الخداع والاحتيال، أو في تقديم النّصح والإرشاد واستنباط العِبر.

الكلمات الدالّة: الحِجاج، الأمْثَال، مَقامَات الحَرِيْرِيّ، النّثْر العَبّاسِيّ، التّداوليَّة

* باحثة.

** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

Rhetoric in the Proverbs of al-Hariri's Maqamat: A Pragmatic Approach

Abstract

The study aimed to explore the impact of proverbs as a rhetorical tool in al-Hariri's *Maqamat*, focusing on their role in influencing, persuading, and leading to compliance, while enhancing the recipient's cognitive revelation.

The researchers adopted a pragmatic approach, emphasizing the role of proverbs as a rhetorical mechanism that influences the audience and triggers responses, leading to behavioral changes based on the frameworks set by the proverbs.

The study's findings revealed that al-Hariri deliberately used proverbs in his *Maqamat* as an effective rhetorical tool, playing a key role in presenting ideas, guiding dialogue, and persuading. He successfully highlighted the persuasive power of these proverbs, establishing them as strong authorities used as proof and evidence in both introductions and rhetorical conclusions. The study also demonstrated the effectiveness of proverbs in disputes and other dialogical contexts such as political, social, and literary criticism, where they are used for multiple purposes, including defense, attack, rebuttal, justification, and sometimes intimidation and threat. These proverbs also contributed to the hero's objectives in the *Maqamat*, whether in deception and trickery, or in providing advice, guidance, and drawing lessons.

Keywords: Rhetoric, Proverbs, *Maqamat* of al-Hariri, Abbasid prose, Pragmatics.

المقدّمة:

ظهر فنّ المقامات جنسًا أدبيًا جديدًا في القرن الخامس الهجريّ على يد (بديع الزمان الهمذانيّ)، وألّف مقاماته للكدية، بعد أنْ كسدت مهنة الأدب عند طبقة من الأدباء الفقراء، فاضطرَّ الأُديب إلى الاحتيال؛ لكسب لقمة العيش. وكانت فنًّاً يصف الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها، وحالة البؤس عند الفقراء والظلم في توزيع الثروات.

وجاء بعد الهمذاني (الحريري) الذي قام بتطوير مقاماته وإبداعها باستخدام غريب اللغة، واستعمل آليات الحِجاج المختلفة؛ فجعل من مقاماته عملاً أدبياً يُحتذى به. وكانت بعض مقاماته للكدية والخداع وبعضها الآخر للنَّقد والسُّخرية؛ للكشف عن عيوب المجتمع العبّاسيّ بالسُّخرية من أصحاب المناصب الذين احتلوها بالخديعة والواسطة، وهم لا يتسمون بصفات تؤهلهم لاعتلائها.

وسعت الدِّراسة إلى بيان دور الأمثال السَّائرة في الإقناع، بوصفها حججًا جاهزة تتصف بالقوة وتمتلك طاقة إقناعية قد تدفع المتلقي إلى الإذعان، وقد تغير سلوكه وطريقة تفكيره بما تحدثُه من تأثير.

وتقوم الأمثال مقام الكاتب في عملية إقناع المتلقّي الخاص في المقامة، والمتلقّي العام في كل زمان ومكان، مُختفياً وراءها، ومطلقًا العنان لها؛ لثقته أنَّها من الحجج التي يصعب الشَّك في مصداقيتها أو مُعارضتها أو تكذيبها؛ كونها مُستمدة من التُّراث، وجذورها راسخة في الفكر والثَّقافة والعقل والوعي الجمعي للأمَّة ووجدانها. عدا عن قيمتها الأخلاقية وما فيها من حكمة مكتسبة من تجارب إنسانية.

أهميّة الدّراسة: تبرز أهمية الدِّراسة في أنها تُظهر أثر توظيف الأمثال السّائرة في عمليّة الحجاج في مقامات (الحريريّ)، وفي إبراز دورها في الإقناع وتحقيق المقاصد الخطابيّة كالدّفاع والتبّرير، أو التّمويه للخداع، أو الاحتيال، أو السُّخرية، أو التّوجيه والنّصح.

مشكلة الدّراسة: تكمن مشكلة الموضوع في عدم دراسة آلية الحِجاج المَثَلية في مقامات (الحريريّ) مع كثرتها وحضورها اللافت في أغلب المقامات، لذا حاولت هذه الدِّراسة تسليط الضُّوء على هذا الجانب من المقامة ودوره الحِجاجيّ بين الشَّخصيات في الحكايات من جهة، ودوره الحِجاجيّ للمتلقّي في كل زمان ومكان من جهة أخرى.

فرضيّة الدِّراسة: تقوم الدِّراسة على فرضية رئيسة مؤداها أنَّ (الحريري) استفاد من ثقافة عصره المتنوعة وخاصة في مجال الجدل والحوار، فاستخدم آليات حِجاجيَّة متنوعة، ومن

ضمنها الأمثال العربية مُستعيناً بها؛ لنجاح بطله في تكدّيه وخداعه، وأيضاً؛ ليكشف المُتلقي عن غرض الحريري الرَّئيس في كل مقامة من مقاماته.

الدِّراسات السّابقة: وفي سياق الدِّراسة هناك بعض الدِّراسات التي تناولت موضوع الحِجاج عامة وبعض آلياته في مقامات الحريري بأهداف متنوعة وزوايا مختلفة، فمنها:

1-مقامات الحريري: حجاجية السَّرد والنّسق الثَّقافي، دراسة في البنية والخطاب، فرحان، علي، الجامعة الأهلية، دار الأيام للنَّشر والتَّوزيع، 2017. تناول الخطاب في مقامات الحريري في الباب الثَّاني من الكتاب من حيث خصائصه ووظائفه الحِجاجيَّة والتَّداوليَّة.

2-ظاهرة الحِجاج في مقامات أبي زيد السّروجيّ، السّعيدي، صادق جعفر عبد الحسين، مجلة لارك للفلسفة واللّسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة واسط، العراق، ع30، 2018، (1-9). تناول أنماط الحِجاج في مقامات الحريري، بواسط نمطي: الحوار ولغة الجسد، وبيّن دور البديع في الحِجاج.

3-حِجاجيَّة السّرد في مقامات الحريري، أبو هنية، عمر ذياب، والشّريدة، محمد علي، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، غزّة، مجلد 26، ع2، 2018. ركّز على حِجاجيَّة السّرد وأثره في البنية الحكائية للمقامة بشكل خاص، وللمؤلف الحريريّ بشكل عام.

4-تداوليّة الرَّابط الحِجاجيّ في مقامات الحريريّ، بوكرمه، حنان، وعلوي، نسيمة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مجلد 13، ع2، 2021، (842-858)، جامعة الشَّهيد حمه لخضر بالوادي. تناول الرَّوابط الحِجاجيَّة، وبعض استعمالاتها وتقصّيها في مقامات الحريريّ، ومساهمتها في التَّأثير والإقناع.

ووجدنا بعض الدِّراسات التي اهتمتْ بحجاجية الأمثال تحديدًا، في غير مقامات الحريري، نذكر منها:

1-المَثَل في كتاب كليلة ودمنة، مجدي عيد المعروف حسين، حولية كلية المعلمين في أبها، جامعة الملك خالد، ع11، 2008، (239-246) - يتحدث عن المثل في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، وقام بتقسيم المَثَل إلى قسمين: قصير وهو البلاغي وما فيه من حكمة وإيجاز. وطويل وهو ما يضربه الكتاب قبل سرد القصة على لسان الحيوان؛ بهدف التَّبرير والإقناع.

2- بلاغة الحِجاج في الأمثَال العربيّة، لعشري محمد علي محمد، مجلة كلية الآداب، جامعة السِّويس، ع2، 2015، (ص221-252) - وتحدث عن الأمثال البلاغية حيث قسمها إلى قسمين:

أحدهما حجاجيَّة للإقناع، والأُخرى للتَّصوير. وقسم أمثال التَّصوير إلى ما فيها من ملمح بلاغي كالتَّشبيه والاستعارة، ودور كل نوع في الإقناع والتَّأثير.

3- حِجاجيّة المثل عند أكثم بن صيفي: دراسة تحليلية، بدر بن علي بن عبد الله العبد القادر، مجلة كلية الآداب، جامعة بسكرة، الجزائر، ع19، 2016، (97-123) – يتحدث عن المثل كوثيقة تاريخية ووسيلة حجاجية للإقناع والتأثير، وقسَّم المثل إلى أقسام رئيسة وهي: المثل السَّائر والمثل القياسي والتعبير المثلي في خطب أكثم بن صيفي لحصول الإقناع في النُّصح في تحقيق المراد.

ومن خلال النظر في الدّراسات السَّابقة التي تم عرضها لم نجد فيها مَنْ تتناول حجاجية الأمثال في مقامات الحريري من منظور المنهج التداولي كما هو مخطط له في هذه الدّراسة.

أسئلة الدّراسة:

تستند الدِّراسة على تساؤل رئيس هو: هل جاء تركيز الحريريّ على الأمثال في مقاماته مقصودًا؟ وللإجابة على هذا السُّؤال حاولت الدِّراسة الإجابة عن الآتي:

- كيف وظف (الحريري) المثل في مقاماته لغايات الإقناع؟
- هل كان توظيف المثل وسيلة ناجعة لتحقيق الإقناع والتَّأثير؟
- ما السِّياقات التي وظَّفَ فيها الحريري المثل؟
- من أين اكتسبت أمثال الحريري طاقتها الإقناعية، وقدرتها على إذعان المتلقي والعمل بمقتضاها؟
- ما طبيعة الإقناع الذي حققته الأمثال في مقامات الحريري؟ هل هو إقناع عقلي أم عاطفي أم حسّي؟

هدف الدّراسة: تهدف هذه الدّراسة إلى استكشاف تأثير الأمثال الشَّعبيَّة بوصفها أداة حِجاجيَّة في مقامات الحريري، وبيان دورها في التّأثير والإقناع وصولاً إلى الإذعان، فضلاً عن تعزيز تجربة الكشف المعرفي لدى المُتلقي.

منهج الدّراسة: اعتمد الباحثان في دراستهما على المنهج التَّداوليّ، الذي يُسلط الضَّوء على دور الأمثال بوصفها آلية حِجاجيَّة تهدف إلى التأثير في المتلقي، وتحفيز ردود أفعاله بما يُفضي إلى تغييرات في سلوكه، بناءً على الأطُر التي تفرضها الأمثال، بغية إبراز المقاصد الحِجاجيَّة، وفعل القول المثلي وأثره في سلوك المتلقي وردود أفعاله.

بنية الدِّراسة: قامت هذه الدراسة على مقدمة ومبحثين، أمَّا في المقدمة فقد تحدثتِ الدِّراسة عن مقامات الحريري وقيمتها، وفي المبحث الأول تناولت مفهوم الحجاج، ومفهوم الأمثال الشعبية

وحِجاجيَّتها. وفي المبحث الثاني تناولتْ حجاجية الأمثال في مقامات الحريري. تلتها خاتمة وتوصيات، تبعها المصادر والمراجع.

المبحث الأول: الحِجاج والأمثال الشَّعبيّة

الحِجاج: يعرّف الكثير من المنظرين الحِجاج مثل(بيرلمان) وغيره بأنه " جهد إقناعي وبأنه بعد جوهري في اللغة"[1].

ولوضع أُسس الحِجاج في الدراسات الحديثة فقد اعتمد الدَّارسون على ترجمة بلاغة (أرسطو) ونظريته في الخطابة، الذي بدوره حدد أركان الإقناع وجعلها على ثلاثة أنواع: اللوغوس: حجة العقل.

والإيتوس: حجّة الأخلاق، والباتوس: حجة الاستمالة العاطفية.[2]

والحِجاج الجَدليّ عند (أرسطو) ذو مجال فكريّ خالص، وعادة ما يكون بين شخصين يحاول كل منهما إقناع صاحبه بوجهة نظر معينة. وأما الحجاج الخطابي فمجاله توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد، أو صنع الاعتقاد، فهو حجاج موجَّه للجماهير[3].

وعليه، لا يقتصر الحجاج على البراهين والأدلة العقلية المنطقية القطعية فقط، بل ينجح ويحقق غايته من خلال الإقناع العقلي والعاطفي والأخلاقي على حدٍ سواء، إضافة إلى الحُجج والأدلة المادية

المحسوسة، و"مجال الحجاج هو المحتمل والممكن والتَّقريبي والخِلافي والمُتوقع وغير المُؤكد..."[4].

وفي إطار المناهج التَّداوليَّة للغة، فقد تمخّضت الدِّراسات حول الحِجاج عن نظريات عدة كان من أبرزها نظرية "الحِجاج في اللغة" عند ديكرو (Ducrot)، وهي نظرية لسانية تنطلق من مسلمة مفادها:

"كلُّ النُّصوص والخطابات التي تتخذ بواسطة اللغة الطَّبيعية حِجاجيَّة، ولكن مظاهر الحِجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لآخر، ومن خطاب لخطاب"[5].

وبناء على ما تقدم، لا بدَّ أنْ تُساق الحجج في قالب لغوي يتطلب- بالتّأكيد - مهارة وحنكة عالية في توظيف اللغة المناسبة للحجة المناسبة بالشَّكل والسِّياق المناسب؛ لتحقيق أقصى درجات الإقناع والإذعان.

1. حِجاجيَّة الأمثال:

المثل: يُعرَّف المثل بأنَّه نص عربي نثري قصير، أُطلق في مناسبة معينة، ثم ضرب فيما بعد في مناسبة أُخرى تشبه في بعض جوانبها المناسبة الأولى، دون تغيير في صيغة النَّص[6]. وقد حدَّد ابن رشيق المثل بثلاث صفات: "إيجاز المعنى، وإصابة اللفظ، وحسن التشبيه" [7]

ويستمد المثل طاقته الإقناعيَّة من طبيعته التي تمثل وعاء يحتوي خبرات الشعوب وحكمها وتجاربها الحياتية. وقد يُوظف بطرق عِدة، كاستعمال المثل السَّائر، أو المثل الحكائي، أو الخرافة والأسطورة.

ويمكن إيجاد علاقة حجاجية في القول المثلي حين يدرج المثل بوصفه أحد عناصر تلك العلاقة ومكوناتها

أو أحد طرفيها سواء الحجة (المقدمة / السَّبب)، أو النَّتيجة[8].

1-1. المَثل: حجة مؤسسة لبنية الو اقع:

يرتبط المثل بالحِجج المؤسسة لبنية الواقع، ويستدعى كطريقة للاحتجاج بما يسمى بالحالات الخاصة، وهو من أكثر أساليب الحِجاج شيوعًا، إذ يوظف للبرهنة ولتأسيس القاعدة بذكر واقعة خاصة سابقة ومشابهة أو مرتبطة بالحالة الحاضرة،[9] إمَّا للمقارنة بينهما أو لتقديم دليل قد يفضي إلى إفحام الخصم، أو نصحه، أو السُّخرية، أو أخذ العبرة.

ولعل أكثر ما يميز الأمثال ارتباطها الوثيق بواقع العرب وسلوكهم وثقافتهم وأعرافهم، حتى أصبحت وثيقة تاريخية لما كانت عليه الحياة آنذاك، وأفصحت عن قيم ذلك المجتمع وعاداته؛ ولذا اتصفت بالشُّمولية والعموم كما اختزلت الخبرات المشتركة لذلك العصر[10].

2-1. المَثل: حجة تداولية تستدعي المشترك:

تعتمد الخطابات الحجاجية كثيرًا على استدعاء المشترك، واستحضار ما يشكِّل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثل المعارف الجمعية المشتركة والشائعة بينهم؛ ذلك لأن للأعراف والمشترك سلطة على النفوس؛ فهي تخضع لما تعودت عليه[11]، وهي سلطة نفسية وإذعان عقلي مخزون في اللاوعي الجمعي للشعوب، يعقبه إذعان سلوكي لما يتم تداوله وإقراره وممارسته في واقعها المجتمعي.

3-1. المثل: استقراء وقياس:

ضم بيرلمان الحجاج بالتمثيل ضمن الحجج شبه المنطقية؛ لأنَّ جوهره في نظره "عملية قياس" يتم فيها الانتقال من أحد الطرفين إلى الآخر اعتمادًا على علاقة المشابهة بينهما "[12]، وهي مشابهة يفهمها

الجميع ويدركون أبعادها وهو ما يزيد الطاقة الحجاجية للمثل.

وعليه ينطوي هذا النوع من الحجاج بالمثل على دلالات ضمنية ومضمرات، وذلك حين يستنتجها المُتلقي استنتاجًا، إذ يقرِّب المثل المعنى إلى الأفهام، ويعمل على إثارة الانفعالات المناسبة للسِّياق حيث يُؤتى به عند إرادة التَّأثير وتهييج الانفعال[13]، واستفزاز فكر المُتلقي ومشاعره.

وفي هذا النَّوع من الاستدلال الضمني يبصر المتلقي التقارب الكبير بين الحالتين عن طريق علاقة

الشَّبه التي يقيمها المُحاجج بينهما، فيؤدِّي المثل ما يؤديه التَّشبيه، أو الاستعارة فيه، لكنه يتفوق على التَّشبيه والاستعارة من حيث إنَّ المشبه به يكون حالة شائعة متداولة تحيل على حادثة كاملة راسخة في الذَّاكرة الجماعية سابرة في أعماق الجميع بحكم الشيوع والتواتر، فيتأكد تأثير القياس ويثبت سحر المثل[14].

إنَّ مدلول كلمة مثل يتعدى في مفهومه العبارة الموجزة إلى قصة مكتملة الأركان ذات مغزى وعناصر تنطوي على رموز ودلالات إقناعية، لذا أطلق ابن المُقفع على حكايات كليلة ودمنة أمثالًا، وجاء في الأدب الصغير: "إذا جعل الكلام مثلًا كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وآنق للسَّمع، وأوسع لشُعوب الحديث"[15].

وخُلاصة القول: إن للمثل حضورًا وسلطة حجاجيّة تتمثل في قدرته على تأسيس الواقع واستدعاء المُشترك الجمعيّ المنبعث من واقع المُتلقّي، والمُتجذّر في ذهنه وعاطفته. كما يستمدّ طاقته الإقناعيّة بما فيه من علاقات شبه منطقيّة، تحفّز المخاطَب على ممارسة القياس بين حالتين متشابهتين، واستنتاج أو فهم المقاصد الحجاجيَّة الظّاهرة والمُضمرة من وراء جلب المثل في سياق الكلام، ثم التأثّر بمضمونه وبناء ردّ فعل مناسب لفحوى المثل ومقتضاه.

المبحث الثاني: البُعد الحجاجيّ للمثل في مقامات الحريريّ:

2-1. المثل / الحكمة:

"المثل والحكمة كلاهما: قول موجز بليغ، يكون شعرًا أو نثرًا، وهما وليدا التَّجربة الصَّادقة والعقل الرَّاجح والرَّأي السَّديد" [16]، وكثير من الحِكم تتخذ في دلالتها ومغزاها وشكلها قالب المثل السَّائر، وقد تختلف الأمثال عن الحكمة في كون المثل:" أقل تجريدًا منها وأكثر تخصيصًا وهو في أكثر الأحيان ذو بُعد حِسِّيّ"[17]. ومن ذلك المقامة القهقرية التي كتب فيها السُّروجي رسالة استجابة لمناظرة، وقد ضمَّنها مجموعة من الحِكم والنَّصَائح، تُقرأ من أولها إلى آخرها كما تُقرأ من آخرها إلى أوَّلها، وقد جمع فيها بين غايتين: الإبداع، والتَّكسُّب. فأتى بما يعجز عنه غيره، واستهلَّها بمثل، وختمَها بالمثل نفسِه: "الإنسان صنيعة الإحْسان"[18]، وهي حكمة ومثل يُضرب لكلّ من ينقاد إلى غيره لمعروفه، فصانع المعروف يملك القلوب، ويجذبُ المُحْسن إليه، ويُخْضعه راغبًا لا راهبًا.

وبعد جملة من النَّصائح ودرر الكلام بدا أثر تلك النَّصائح والحقيقة المُتجسدة في المثل (أثر الإحسان)، فصوَّر الرَّاوي تهافت القوم على السُّروجي، وتفرُّقهم بعد مغادرته كتفرُّق قبيلة سبأ وتشتتها بعد سَيلِ العَرِم، تعبيرًا عن النَّدم لِمفارقَتِه، وتأكيدًا على عمق أثره ورفعة قدره، وكأنَّ مفارقته عقاب وسبب للتَّشتت والضَّياع كما يظهر في قوله: "ثُمَّ وَلَّى يَجُرُّ عِطْفَيْهِ ... ونحنُ بينَ مُتَلَفِّتٍ إليْهِ ومُتَهافِتٍ عليه، ثم لَمْ نَلبثْ أنْ حَلَلْنا الحُبَى، وتَفَرَّقْنا أيَادِيْ سَبَأ"[19].

ونرى حجَّة التَّسليم لقضاء الله في المقامة النّصيبيَّة، وتجسّد حالة الخضوع أمام حتميّة الموت بعد أنْ أنهك المرضُ السُّروجيَّ وأُشِيْعَ "أنَّ رَهْنَهُ قدْ غَلَق"[20]، كناية عن الموت، وهو مَثل يُضرب لِمَنْ يقع في أمرٍ لا يرجو مِنْه خلاصًا[21].

وقد عبّر السّروجيُّ عن تسليمه وإذعانه لقضاء الله مُستحضرًا المثل: "ولا حِمَى كُلَيبٌ منه يَحْمِيني" [22]. وهو مثل يُضرب لمن يَحمي الجِوار، وهنا لا حِمى يُجير السّروجيَّ، وأيّ إنسان من الموت حتى لوكان حمى كليب، ذلك الحِمى الحصين الذي نشبت حرب البسوس الطّاحنة وهاجت بسبب تعدي ناقة البسوس على جوار كُليب وكَسر بيضِ القنبرة التي جعلها في حِماه.

ونجد هذا المزج بين المثل الحكمة، أو الحكمة المثل في الوصايا التي أزجى بها السُّروجي لابنه في المقامة السّاسانيَّة. وبتتبع خيط الوصايا المَثَليّة في المقامة نجدها تسير على النَّحو الآتي:

1-الاستمالة العاطفيّة، من خلال التَّضامن، والتَّعزيز النَّفسي، والثَّناء على الابن، والثِّقة بوعيه ونباهته، وتظهر حين أثنى السّروجيُّ على ابنه قائلًا: "ومِثْلُكَ لا تُقْرَعُ لهُ العَصَا، ولا يُنبَّه بِطَرْقِ الحَصَى"،[23] وهو مثل يضرب للإنسان الواعي النبيه والمُحَنَّكِ المُجَرَّبِ.

2-2-الاستمالة العقلية حين وجَّهَ السّروجيُّ لابنِه نُصْحًا؛ لِيُشْعِرَه بقيمة ما سَيُملِيه عليه، فقدّم واستهلّ وصاياه بقوله: و"افْقَهْ أمْثَالِي"[24]، مما يدلُّ على قيمة المثل، فهو ركيزة مهمة من ركائز الرُّشد والفهم، وما تتطلبه من حُسن إدراك وعلم وفهم لدقائق مغزاها، وما تنطوي عليه من دلالات وعِبَر؛ حتى تتحقق الغاية المرجوة، وتتبين المقاصد من ذكرها. لذا ختم وصاياه بأبيات شعر، تؤكد حثَّه على العمل بمقتضى

ما أمْلاه على ابنه من أمثال، قائلًا [25]:

فَاعْمَلْ بِمَا مَثّلْتُهُ عَمَلَ اللّبيبُ أَخِي الرَّشْدِ

3-3-الإجمال في القول، ومن ذلك قوله: "المَرْءُ بِنَشَبِهِ لا بِنَسَبِه."[26] أي: بماله. افتتحَ به وصاياه؛ ليقنع الولد أنَّ قيمة الإنسان بماله، وما يُحققه من مكاسب لا بحسبه ونسبه. وهي نظرة تعبر عن تفكير مادي نفعي، يصور فيه الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، وتركيز المجتمع على الجانب المادي، وراح الأب يؤكد ذلك، ويسوق الحجج فيما بعد، والمقارنات بين أنواع مختلفة من الأعمال والصِّناعات، كالزِّراعة والتِّجارة والصِّناعة، والمناصب وغيرها؛ للتَّنفير من تلك الصِّناعات والتَّرغيب بالمهنة التي اختارها وفضَّلها على سائر المهن والأعمال، وليثبت رأيه ويقنع مُتلقيه الخاص وهو(ابنه)، والمُتلقي العام في كلِّ زمان ومكان.

ومن ذلك تنفيره من السَّعي وراء المناصب، مُستحضرًا المثل: "ناهِيْكَ غُصَّة بِمَرَارَةِ الفِطَامِ"[27]، يُضربُ في لذة الوصول إلى المنصب، ومرارة الحساب والعزل منه. أي "حَسْبُكَ منَ الإمارةِ ما للعزْلِ مِنْ مَرارة."[28] وهو من أمثال المُولدين[29]: "الإمَارَةُ حُلْوَةُ الرِّضَاعِ مُرَّةُ الفِطَامِ". وقد ضربه لابنه؛ لتنفيره من السَّعي خلف الإمارات والمناصب العُليا.

4- الإقناع بالتَّشويق، والإقناع المادي: إذ قدم وصفاً شيّقًا للمهنة التي فضّلها على غيرها، وأثنى على أصحابها وما تُدِرُّهُ عليهم من منافع وتدفع عنهم من مضار، وهي الملاذ الآمن للفقراء، والدَّليل قوله:

"كانَ أهْلُهَا أَعَزَّ قَبِيل وَأَسْعَدُ جِيْل.... حَيثُما سَقَطُوا لَقَطُوا"[30]، (أي جمعوا الرزق) وهو من أمثال المولّدين ويُضرب للمحتال.

وأثنى على روادها، ومنفعتها: قائلًا: " لا يتميزون عمَّن "تغدو خِماصا وتروحُ بِطانًا"[31]، فرزْقُهم مضمون كالطير، تغدو جائعة وتروح ممتلئة البطون. وهو من قوله - عليه الصلاة والسلام-:" لَوْ أَنَّكُمْ تتوكَّلونَ على اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطَانًا"[32].

وأمام هذا الوصف والتَّشويق ظلَّ الابن في حيرة وطلب التَّفصيل بعد الإجمال، لتتضح الصُّورة ويُدرك المقصود، فقال مستحضرًا المثل: " يا أبتِ... لكنكَ رَتَقْتَ وَمَا فَتَقْتَ، فَبَيِّنْ لي كَيْفَ اقْتَطِفُ وَمِنْ أَيْنَ تُؤكَلُ الْكَتِفُ؟"[33]. وهو مثل يطلب للدَّاهي الذي يأتي الأمور مأتاها. فكان التَّفصيل والإرشاد بـ:

أولًا: نبذ الكسل والحث على الهمة والنَّشاط: إذ وضّحَ وفَصّل جالبًا سيلًا من الأمثال؛ ليرشد الابن من أين يأكل الكتف؟ وكان قوامها التَّشجيع على السَّعي الدَّؤوب والنّشاط والتّجوال، والفطنة والجرأة والنَّباهة، ونبذ الكسل والخمول...الخ.

وقد ضرب أمثالًا كثيرة ترتبط بعالم الحيوان لأخذ أحسن صفة فيها والاقتداء بما تتميز به من نشاط.

وعمل وسرعة ونباهة...، ومن ثم الانتفاع بسلوكها؛ لتحقيق الرشد والفلاح في رحلة الحياة، فكانت تلك الأمثال بحد ذاتها حجة وأدلَّة جاهزة لإثبات رأي الأب، وتوجيه الابن، وتوضيح الصُّورة له، ومن ثم

ستكون النَّتيجة المتوقعة دفعه للعمل بمقتضاها. فيقول:

يا بُنَيَّ إنَّ الارْتِكَاضَ بَابُهَا، والنَّشَاطَ جلبابُها، والفِطْنَةَ مِصْبَاحُهَا... فَكُنْ أَجْوَلُ مِنْ قُطْرُبٍ، أَسْرَى مِنْ جُنْدُبٍ، أَنْشَطُ مِنْ ظَبْيٍ مُقْمِرٍ. وَأَسْلَطُ مِنْ ذِئْبٍ مُتَنَمِّرٍ".[34] وفي موضع آخر يقول: "أَلْقِ دَلْوَكَ إلى كُلِّ حَوْضٍ"[35]. وأصله:" أَلْقِ دَلْوَكَ بَيْنَ الدِّلَاءِ"؛ لحثه على الاكتساب والسَّعي مع النَّاس.

ثانياً: نبذُ الجُبْنِ، والحَثُّ على الجُرأة والإقْدام؛ لجلب الثَّروات وإدراك الحَظوات. فنصحَه بالمِثل قائلًا:

"مَنْ جَسَرَ أَيْسَرَ وَمَنْ هَابَ خَابَ"[36]، فضعيف النَّفس يخيب الأمل والرَّجاء.

وانطلاقًا من مقولة أهل النَّظر: "يَنْبَغِي للإنْسَانِ أَنْ يكونَ فيهِ عَشْرُ خِصَالٍ مِنْ أَخْلَاقِ الطَّيْرِ والبَهَائِم".[37] راح يضربُ أمثالًا بِجُرأةِ الغُرَابِ، وحَزْمِ الحِرْبَاءِ، ومَكْرِ الذِّئبِ والثَّعْلَبِ، وحِرْصِ الخِنْزِيْرِ، ونَشَاطِ الظَّبْيِّ، وصَبْرِ الجَمَلِ، وتَلَطُّفِ الهِرِّ، وَتَلوُّنِ الطِّبْرِ...[38] . ثم انتقل إلى ضرب الأمثال بشخصيات معروفة، تحمل الصفات ذاتها فيما ذكره من صفات البهائم والطير: كحيلةِ قصير، ودهاءِ عَمْرو، ولُطْفِ الشّعبِيّ، واحتمالِ الأحْنَف...الخ[39].

ثالثا: الحثّ على السَّفر وكثرة التَّنقل والاغتراب.

فمن صور النَّشاط: طلب السّفر والاغتراب. ولترغيب ولده في التِّرحال والتَّنقل وزيادة درجة الإقناع، جنح إلى الاستمالة الدِّينية، مُستشهدًا بأمثال على ألسنة المشايخ وأعلام الشَّريعة،

ليكون دليلًا وشاهِدًا على فضل الاغتراب، فقد أجمعوا أنَّ "الحَرَكَةَ بَرَكَةٌ"[40]. وردُّوا على من زعم أنَّ الغربة كربة وعقاب، وعابوا عليهم ذلك القول، ورفضوه وبرروا بقولهم: "هيَ تَعِلَّةٌ مَنِ اقتنَعَ بالرَّذِيْلَةِ ورَضِيَ بِالحَشَفِ وسُوْءِ الكِيْلَة"[41] وهو مثل لمن يجمع بين خصلتين قبيحتين. وعليه فمن ينكر فضل الغربة فقد جمع بين الكسل وضياع الرزق. وتجاربه أو سعيه لن يكون بغنى تجارب المتنقل النشط وسعة رزقه.

ولنباهة الأب وخبرته لم يغفل أنْ يُسديَ لابنه النّصائح والتَّوجيهات مُطَعَّمَة بالأمثال؛ لِيَسْلُكَ طَرِيْقَ

الغُرْبَةِ بِجَسَارةٍ وَوَعْيٍ، فَكُلُّ مَا عَلَى المَرْءِ والابْنِ هو أنْ يَأْخُذَ حِرْزَه فيما يَعِينه، ويقيه شرّ الغربة. ومن ذلك: "تَخَيَّرِ الرَّفِيقَ المُسْعِدَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَصْعَدَ، فَإِنَّ الجَارَ قَبْلَ الدَّارِ"[42].

واستمرَّ فيض الأمثال حتّى تشبّع الولد بنصح أبيه وأعجبه ما سمع فقطع عهدًا بأنْ يلزمَ نُصحه ولا يحيد عن طريقه ورسمه، حتى يقال:" ما أَشْبَهَ الليلةُ بالبارِحَة"[43] وهو مثل يضرب للمتشابهين. وتعزيزًا وتثبيتًا للابن، عَبَّرَ السُّروجِيّ عن سروره وقال: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَم"[44]. وهو مثل يضرب للولد إذا كان على شاكلة أبيه خَلقًا وخُلقًا. فيُفهم ضمنًا: إذا لم يلزم الابن نصح أبيه ولم يشبهه ← النتيجة: ظلم وخاب وخسر. فبنية المثل شرطية تربط الأسباب بالنتائج، وتنطوي على تثبيت وتحذير، كالآتي :

التَّثبيت: من أشبه أباه (سبب) ← النَّتيجة: فما ظلم (نفي الظُّلم)

التَّحذير: إن لم يشبه أباه (نفي السبب) ← النَّتيجة: ظلم (إثبات الظُّلم)

يتضح من تسلسل الأمثال في المقامة وأثرها، ما يتردد في النَّظرية التَّداولية في إطار ما يُسمى بـ "أفعال الكلام" عند أوستن وسيرل، إذْ تنبهوا أنّ" إنجاز جملة ما قد يصحبه فعلين لغويين، وكل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلاليّ إنجازي تأثيري، يعتمد على أفعال قولية تسعى إلى تحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المُتلقي"[45] وقول الأمثال تُرافق معه فعل الابن أو ردود أفعال تظهر استجابة لمضمونها وتأثرا انتهى بإنجاز سلوكيات تتفق ورغبة الوالد، وتثبت اقتناع الابن بما سمع. وما يميز الأقوال المَثلية في المقامة كونها نصوصًا حجاجيَّة حكمية ترمي إحداث تغيير أو إطراء عبرة في نفس المتلقي قصد الاقتداء ورغبة في تغيير المجتمع وتوجيهه إلى ما يتوجب فعله أو تحاشيه.

وعليه شكّل المثل نصًّا حِجاجيًا تهذيبيًا إنسانيًا وجماليًا، يروم تثبيت قيم أخلاقية إنسانية وإيصال غرض تعليمي إلى المُتلقي[46].

ومن ناحية أخرى فقد مثّلت الكائنات والشّخصيات المذكورة في الأمثال أيضًا حجة بما تبثه من قيم وما تطرحه من أفكار، وبما تمارسه من أعمال، وهو ما يطلق عليه (بيرلمان) "حُجّة الشّخص وأعماله". إذ يكون ما نعرفه عن الشّخص وماهيّته هو الذي يفسّر ما غمض من أعماله وتأويلها[47]. وقد تجلّت حجّة الشخص وأعماله بصيغة مثلية في المقامة التّبريزيّة من خلال:

1. الدّفاع عن النّفس بالمقارنة للتّعريض والسُّخرية:

تمثل السّخرية حجة تداولية في حد ذاتها. وقد قام ا(لحريري) بتطوير مقاماته موظفًا السّخرية النّقدية التي يكشف فيها عيوب المسخور منه، وكاشفًا أسباب ضعف الدولة بأمثال المسخور منهم الذين تقلدوا مناصب عُليا لا يستحقونها وليسُوا أهلًا لها.

وبدت السّخرية واضحة في المقامة التّبريزية باستعمال حجة الشّخص وأعماله، باستعراض قائمة طويلة من الأمثال وما جرى فيها من تلاسن وخصام بين السّروجي وزوجه أمام القاضي، وكل منهما يأتي بأمثال ترتبط بأشخاص، ومقارنتها بالخصم؛ لإفقاد الآخر ثقته بنفسه وذمّه والسخرية منه، وبمجرد ذكر المثل تنعكس دلالته على الشَّخص المخاطَب، إنْ كانَ خيرًا ومَدحًا فَمدْح، وإنْ كان ذمًا وقبحًا فتعريض وسخرية وهجاء يلحق المخاطَب. وبتتبع خيط الأمثال يظهر الحِجاجُ اللساني على النَّحو الآتي:

الحجة الأولى: كسر التوقع، إذ وصف السّروجي زوجه شديدة الجمال (ظاهرة السّفور) معتقدًا أنها ستكون الرفيقة المؤنسة في الغربة والصّاحبة للخلاص من عذاب العزوبية، لكن النتيجة كانت عكس ما توقع، فعبّر عن خذلانه ووصفها بمثل، قائلًا: "فَلَقِيْتُ مِنْهَا عَرَقَ القِرْبَة"[48] أيْ وجد المشقة في صحبتها كمشقة حامل القربة حتى يتصبب منه العرق لشدة ما وجد.

الحجة الثانية: حجة عملية، وهي: التَّوجُّه إلى القاضي وسعي كل منهما لعرض ما لديه من حجج للدّفاع عن نفسه وكشف عيوب الآخر وتقصيره. وعليه فبنية المقامة بنية حجاجية بامتياز، وَقَدْ اتَّكَأَ كُلٌّ مِنْهُمَا على الأمثال للرّد، والدِّفاع، والإفْحام، فظهرت فاعلية الحِجاج بالأمثال بجلاء، وقد بنيت جلها على المقارنة باستخدام صيغة التفضيل (أفعل). وكان سير المحاكمة كالآتي:

- السروجي: في البداية وظّف السّروجي حجّة "عدم الاتفاق" بالشكل الآتي:

النتيجة: "مَطِيْتِي (زوجتي) أَبِيَّة كثيرةُ النُّفُورِ (السبب): مع أَنِّي أَطْوَعُ لَهَا مِنْ بَنَانِهَا، وأَحَنُّ عليْهَا مِنْ جِنَانِهَا"[49]. إذ أثبت أن سلوك زوجه وأخلاقها معه لا تتفق مع جمال أخلاقه وحسن عشرته لها، وكان الأولى والمتوقع إقبالها لا إعراضها .

- الزوجة، اتهمته قائلة: "يَدُورُ خلفَ الدَّارِ ويَأْخُذُ الجَارَ بالجَارِ"[50]. ثم هيمنت حجة "مقارعة الخصم"، وحجّة "رد البرهان على صاحبه" بجلب الأمثال، كالآتي:

- السروجي، مدافعًا: "إِنَّهَا أَكْذَبُ مِنْ سُجَاح" [51](سجاح): امرأة ادعت النبوة و يضرب بها المثل في الكذب.

- الزوجة: هو "أَكْذَبُ منْ أبي ثُمَامَة "(مسيلمة الكذاب) مشهور، يضرب به المثل في النفاق والكذب.

- السّروجي: ألقى وابلًا من الشتائم ضمّنها أمثالًا، كقوله: "أَقْبَحُ مِنْ قِرْدَةٍ" : وهو من أمثال المولّدين. "وأَقْبَحُ مِنْ رِجْلَةٍ": ضرب من الحمض تنبت في مجاري السّيل فيجترفها[52].

وتسلسلت شتائمه ليبرز تفوقها في أخلاق السّوء: أقبح، من.. أيبس من..، اخشن..، أنتن، أثقل، أقذر، أبرز، أبرد، أحمق من، أوسع من ...

وفي المقابل راح يضرب لها أمثالا لنساء ممن تميزن بجمال، وحسب، ونسب، ومال، وملك، وأدب، وعبادة، وتنسك، وعفة. وبمجرد ذكرهن فهو يعقد مقارنة بينهن وبين زوجته فيعرّض بها ويحقّرها .

ويصعّد حجاجه وسخريته من زوجته، ويصل ذروة التحقير لها حين يعلن أنها لو ملكت صفات تلك النسوة كلها، فلن يقبل عودتها حليلة له؛ لأنها خائنة وليست أهلا لأن تكون زوجة، ومن تلك الشخصيات :التي دار ذكرها في المقامة:

شخصية (شيرين) امرأة كسرى مشهورة بجمالها (لوْ حَبَتْكَ شِيْرِينُ بِجَمَالِهَا)، و(زبيدة) زوج هارون الرشيد صاحبة الملك والمال، و(بلقيس) بعرشها، و(بوران) بفرشها، و(الزباء) بملكها، و(رابعة) بنسكها، و(خندق) بفخرها (أم العرب وجميع القبائل من ولدها)، و(خنساء) بشعرها في صخرها.

وكانت النتيجة: "لَأَنِفْتُ أَنْ تَكُونِي قَعِيدةَ رَحْلِي"[53] ...

- الزوجة: لم تقف زوجه مكتوفة الأيدي ولم تعجز عن الرّد، فقابلته بمثل طريقته وأغدقت عليه الشتم والهجاء، والمقارنة بشخصيات تحمل صفات القبح، والشؤم، واللؤم، والسوء، والطيش، كل ذلك بصيغ مَثلية كالآتي :

"يَا أَلْأَمُ مِنْ مَادِر (رجل بخيل ولئيم)، أَشْأَمُ مِنْ قَاشِرٍ، أَجْبَنُ مِنْ صَافِرٍ، أَطْيَشُ مِنْ طَامِرٍ، أَحْقَرُ مِنْ قُلَامَةٍ، أَعْيَبُ مِنْ بَغْلَةِ أبِي دُلَامَة، أَفْضَحُ مِنْ حَبْقَةٍ، أَحْيَرُ مِنْ بَقَّةٍ".[54] وفي المقابل ضربت أمثالًا بشخصيات تحمل صفات النبل والعلم والفصاحة والأدب، ومهما بلغ السّروجي من سموّ، وعلم كسمو تلك الشخصيات فلن تقبل به حتى بوابا عندها !

ومن هذه الشخصيات: (الحسن) في وعظه، و(الشّعبي) في علمه، و(الخليل) في عروضه، و(جرير) في غزله وهجوه، و(قسّ) في فصاحته وخطابته، و(عبد الحميد) في بلاغته و(أبو عمرو) في قراءته و(ابن قريب) في روايته وإعرابه.

النتيجة:

أولًا: حكم القاضي بتعادل الخصمين، وعبّر عن حكمه بمثل: "وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَة"[55].

ثانيًا: إذعان القاضي وإحساسه بالعجز أمام سلاطة لسانهما وردهما الحجّة بالحجّة، فقدّم لهما المال لفض نزاعهما، والتخلص من الحكم بينهما، ولعجزه عن حلّ المشكلة.

ثالثًا: عزم القاضي اعتزال مهنته.

وبذلك عزّز الحريري دلالة النَّقد الاجتماعي والسِّياسي، وأظهر ضعف القضاء والعجز عن حل المشكلات، وفي الآن نفسه أثبت قوّة المثل الحجاجيَّة.

وفي المقامة الرَّحبية نجد السُّخرية من القاضي أيضا، إذ قال السُّروجي للوالي بعد أن كشف شذوذه وسخر منه بأخذ المال عن طريق دعوى كاذبة بأن جعل ابنه غريمه، فكشف عيوب القاضي الذي حل القضية بطريقة خاطئة، فقال السّروجي مثلا للتَّعريض به:

وَلَكَمْ مَنْ سَعَى لِيَصْطَادَ فاصْطِـ ـيْدَ وَلَمْ يَلْقَ غَيْرَ خُفَّيْ حُنَيْن[56]

والمثل هنا خفا حنين، حيث يُضرب فيمن أراد شيئًا، ولكنّه لم يجده، فوجد الخيبة بعد طول الغيبة، وهذا يشبه حال أعرابي احتال عليه حنين الإسكافي، فأخذ راحلته وما عليها، وأخذ الأعرابي الخفين، وعندما رجع لقبيلته، ضُرِبَ فيه المثل على الخيبة، فشبَّه به حال الوالي الذي أراد اقتناص الغلام، لكن السُّروجي احتال عليه، وجعل مسعاه خائبًا بالارتحال مع ابنه والسّخرية منه.

2-2. المثل: مرتكز حواريّ حجاجيّ في المقامات:

حيث يوظِّف الحريري على لسان بطله أبي زيد السّروجي أو زوجته أو ابنه، أمثالاً للدفاع عن موقفه في حواره مع طرف آخر كالراوي، أو إحدى الشخصيات داخل المقامة، وهو ما شهدناه في تلاسن السروجي وزوجه أمام القاضي في المقامة التّبريزية - كما تقدم - وتظهر نجاعة المثل الحجاجية في المقامة الوبريّة، إذ حفلت بالعديد من الأمثال التي شكلت منظومة حواريّة أفضت إلى مقاصد خطابيّة، كوصف حال، أو السؤال عن حال، أو النصح والتوجيه، وأحيانا التهديد والترويع، واستعراض القوة، والسخرية، والاحتقار. وتشكل الحوار المثلي في المقامة كالآتي :

البداية من الحارث بن همام، واصفًا الحر الشّديد وهجير الصحراء وما قاساه في فلواتها وهو يبحث عن ناقته الضالة، فعبر عن يومه بمثل قائلًا: "كَانَ يَومًا ... أَحَرُّ مِنْ دَمْعِ المقْلات"[57]، والمقلات: هي المرأة التي مات عنها ابنها فبكت وجدًا، وأفاضت دمعًا حارًا شديدَ الحر؛ لأنَّ عبرات الحزن تكون ساخنة لاذعة وتنبع من لوعة وإحساس بالعذاب[58]. فأحالنا الحارث إلى عذابه وما يقاسيه من لهيب الصحراء، وبالتالي لنا أن نتخيل حاله وصورته وهو تائه يكابد السير في مثل هذا اليوم العصيب، ولا يكون ذلك إلا لأمر عظيم.

وقد أدرك السروجي بعد أن التقى صاحبه الحارث في كبد الصّحراء أن ما دفعه لتحمل كل هذا العناء أمر عظيم لا محالة، فالتفت إلى الحارث وقال: "لِأَمْرٍ مَا جَدَعَ قَصِيْرٌ أَنْفَه"[59]، وهو مثل يُقال لما يُستعظم حصوله، وقصة "قُصَيْر" معروفة، إذ قام بقطع أنفه بيده ليحتال؛ ولينتقم لمولاه بعد أنْ قتلتْه الزّبَّاء. ولكي يخفض من جأش الحارث ويهون عليه مصابه أسجى له النصح ودعاه إلى تجاوز همومه

وكل ما يقلقه ويقض مضجعه، أو يؤذيه، وساق المثل: " حَتَّى لَوْ كَانَ ابْنَ بُوحِك"[60] أي ابن نفسك ومن أصلك، فحقق المثل حجة التَّجاوز ودعوة لتخطي كل متعب، حتى لو كان من أقرب النَّاس. وبذا أعطى المثل وما رافقه من نصائح جرعة أمل، وكان له أثر في نفس الحارث، فاستأنس به حتى غط في نومه ورمى ما كابده خلف ظهره.

ومن الجدير بالذّكر أن المثل جاء مربوطا بعد الحرف " لو " على النحو الآتي:

أَضْرِمْ نَارَ تَبَارِيْحَكَ (أَطْفِئ غُمُومَكَ) ← لَوْ ← كانَ ابنَ بُوحِكَ أوْ شَقِيقَ رُوْحِكَ[61]

والحجة بعد هذا الرابط دائما هي الحجة الأقوى، والأكثر إقناعًا من الحجج السابقة له. ولا يصلح أن تكون الحجة السابقة أقوى من الحجة اللاحقة، وقد أفلح السروجي في توظيف المثل في

هذا السياق؛ إذ إن أكبر انتصار هو الانتصار على النفس وأقوى عامل للتغلب على الهموم يبدأ من الداخل، فإن أغلق باب الغم والهم في وجه النفس فسيسهل إغلاق كل باب بعده.

ولما استيقظ ولم يجد السّروجي حوله شعر بالخوف وفقد الأنس فوصف خوفه متمثلاً بليل النابغة، قائلًا: "بِتَّ لَيْلَةً نَابِغِيَّة"[62]، وهو مثل يضرب لمن يقضي ليله خائفًا مرتعدًا كخوف النابغة من وعيد الملك وتهديده. لحظتها وجد الحارث ضالته وعرف ناقته يقودها عابر سبيل، فتلاسنا حين أراد الحارث استرداد ناقته، وفي سبيل إظهار الدلالة وظّف سلسلة من الأمثال، منها ما جاء مقدمة حجاجيَّة وسببًا، ومنها ما كان نتيجة ورد فعل. فجسّد الصراع بتعبير حجاجيّ مثليّ كالآتي:

المقدمة /القول: قول الحارث موبخا وهاجيا: "لَا تَكُنْ كَأَشْعَبَ" [63](أشعب: رجل طماع يضرب به المثل في الطمع).

ن1 "فَأَخَذَ يَلْدَغ ويَصْئِي"/ مثل لمن يظلم ويشكو كصأي العقرب أي تصويتها.

النتائج/ فعل القول(أثره) ن2. "يَنْزُو وَيَلِيْن"[64]/ مثل لمن يتعزّز ثم يلين.

ن3. نتيجة الصراع: تمرّد الرّجل واستقواؤه على الحارث.

وردًا على استقواء الرجل، جاء الراوي بمثل يجسّد حجة "القوة" وسلطتها التي تفوق قوة الرجل وظلمه، فصور حال السّروجي وقد حضر بعد غياب قائلا: "إِذْ غَشِيْنَا أبو زَيْد لَابِسًا جِلْدَ النَّمِر"[65] وهو مثل يضرب لمن غضب بعد الرضى. كالقول: "اتَّقِ شَرَّ الحَلِيمِ إذا غَضِب" وقد آزر صاحبه وأعانه ودفع عنه شر الظالم، مخاطبا الخصم بالأمثال التي تنطوي على تهديد وهزء، وقد حاصره بخيارات لا تراجع عنها، وربط المقدمات بالنتائج موظفا أسلوب الشرط قائلا :

1 " -لَئِنْ لَمْ يَنْجُ مَنْجَى الذُّبَاب"[66]: أي يذهب وينجو بنفسه ذليلا، وهو مثل للذليل عليه واقية من لؤمه وخسته .

2-"وَيَرْضَ مِنَ الغَنِيْمَةِ بِالإياب"[67]: أي يغتنم الرجوع إلى وطنه ويقنع بالسلامة وهو مثل مأخوذ من قول امرئ القيس: لَقَدْ طَوَّفْتُ في الآفَاقِ حَتَّى رَضِيْتُ مِنَ الغَنِيْمَةِ بِالإيَابِ

3 "-لَيُورِدَنَّ سِنَانَهُ وَرِيْدَهُ" (تهديد بالقتل) فَإِمَّا أنْ يَهْرُبَ ويَنْجُو بِنَفْسِهِ ذَلِيلًا وَإِمَّا أنْ يُقْتَلَ على يد السروجي.

وكانت النتيجة النهائية: خوف الرجل وإذعانه بالفرار. وقد صوّر فراره بطريقة ساخرة، مستحضرا المثل: "أَفْلَتَ وَلَهُ حُصَاصٌ"[68] وهو مثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد ما كاد يهوي فيها. والحُصَاصُ: العدو، وقيل الضّراط[69].

ونجد الارتكاز على الأمثال لتشكيل لغة الحوار أيضا في المقامة الحجرية، إذ بنيت لغة الحوار بين الغلام والحارث والحجّام بصيغة مَثَلية، ترتبط بذكر شخصيات ووقائع سابقة لوصف الحال، أو للتنصل من التهم ورد البرهان بالبرهان وغيرها من المقاصد، على النحو الآتي:

حين أبطأ الغلام وتأخر في إحضار الحجّام، قال الحارث: "وَيْلَكَ أَبُطْءَ فِنْدا!" [70]. (فندا: مولى عائشة بنت أبي وقاص، يضرب به المثل بالبطء ← المعنى الضمني: توبيخ الغلام لأنه بطيء جدا.

رد الغلام مدافعًا:

ح1." إنَّ الشَّيْخَ أَشْغَلُ منْ ذَاتِ النَّحْبَيْن" (امرأة تبيع السَّمن يضرب بها المثل في الانشغال).

ح2. وفي حرب كحرب حُنَيْن. (غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم).

ح3. "ثُمَّ رَأَيْتَ أنْ لَا تَعْنِيْفَ عَلَى مَنْ يَأتي الكَنِيْف" (مثل لمن يأتي المواضع الخسيسة لضرورة)"[71].

ثم ينقل لنا ما رآه عند الحجّام وأحد زبائنه، إذ تأهَّب الفتى "الزبون" للحجامة، فقال الحجّام: "لَسْتُ مِمَّنْ يبيعُ نَقْدًا بِدَيْنٍ أوْ يَطْلُبَ أثَرًا بَعْدَ عَيْن[72]. (مثل لمن ترك شيئا يراه ثم تبع أثره وطلبه بعد أن فاته). المراد: أنَّ الحجَّام يشترط دفع الدراهم عينا قبل أن يحجم الفتى.

وحاول الفتى إقناعه أن يثقَ به، ووعده بأن يدفع لاحقا. فرد الحَجّام بضرب المثل:" وَيْحَكَ إنَّ مِثْلَ الوُعُودِ كَغَرْسِ العُود هُو بَيْنَ أنْ يُدْرِكَهُ العَطَبَ أوْ يُدْرِكَ مِنْهُ الرُّطَب"[73] . أي كغرس الشّجرة ونتائجه غير مضمونة، فإما أن تثمر، أو يصيبها الهلاك، وكذلك وعود الفتى لا ضمان يضمن للحجّام الوفاء بها.

الفتى: احتج لمكانته ومنزلته التي جهلها الحجّام، فلم يراعِ مقام الفتى، فوظف الفتى حجة "عدم الاتفاق" واستحضر مثلا لتقريعه وتوبيخه قائلا:" ... لكِنَّكَ جَهِلْتَ فَقُلْتَ، وحَيثُ وَجَبَ أنْ تَسْجُدَ بُلْتَ، ومَا أقْبَحُ الغربةَ والإقلالَ"[74]. وهو يقال لمن يفعل بعكس ما ينبغي أن يفعل. فسلوك الحجّام مع الفتى لا يتفق مع مكانته وأصله وأخلاقه.

الحجّام: رد بوابل من الأمثال لرد الفتى وإظهار ضعف حجته، فليس المقام مقام فخر بالنسب والأصل والفصل، بل مقام دفع للمستحقات وثمن خدمة الحجامة التي ستقدم له. ولتحقيق ذلك ضرب مثلا بأشرف الأنساب: كبني شيبة سدنة الكعبة، وعبد مناف (جد الرسول)، وعبد المدان (يضرب به المثل في الغزو والشّرف) في رسالة مؤدّاها: لو أن أصل الفتى من جهة أعمامه وأخواله يتبع لتلك الأنساب الشريفة فلن يعفيه ذلك من دفع ما عليه، فكيف وهو ينتسب لمن

هم أقل منهم شرفا وحسبا ونسبا؟ بمعنى آخر: ليس الفخر بالنسب حجة مقنعة ولا مبررًا للطمع والاستغلال والتهرب من الدفع.

وقد حسم الحجّام الأمر أيضا بمثل: فلَا تَضْرِبْ في حديدٍ بَارِد[75] . وهو مثل يضرب لمن يطمع في غير مطمع. وعليه فلا جدوى من الاحتجاج بالنسب والأصل في هذا المقام، كما لا جدوى ولا فائدة ترجى من ضرب الحديد البارد. وقد تشكلت الحجج المثلية في المقامة على النحو الآتي:

المقدمات: م1"هَبْ أنَّ لَكَ البيتَ (بني شيبة) م2. ولوْ أنَّ أبَاكَ أنَافُ على عَبْدِ مَنَاف. م3. ولَخَالِكَ دانَ عبدَ المدان" [76]

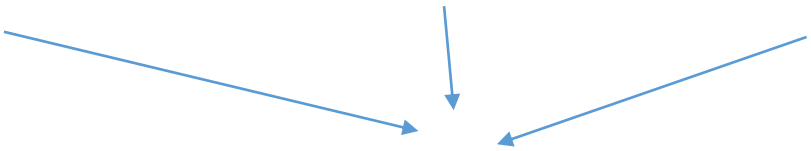

النتيجة: لا تضرب في حديد بارد / المعنى المضمر← لن يشفع لك النسب، ولن تُحجَم

وكانت النتائج بعد حوار طويل: ن1. شعر الفتى أنه " يشْكُو إلى غَيْرِ مُصْمّت"[77] وهو مثل يضرب لمن لا يكترث لشأن صاحبه. ولا يعبأ باستمرار شكايته. وأكد شعوره بمثل آخر بعد أن أكثر من التباكي وإهدار الدموع، فقال: "هَانَ عَلَى الأمْلَسِ ما لاقَى في الدُّبُر"[78]. وهو مثل للسليم لا يبالي بما يقع للمريض من المشقة. فآثر القيام ومغادرة المكان.

ن2. جنح الحجّام إلى مسالمة الفتى وحاول مصالحته، "وبَذَلَ أنْ يُذْعِنْ لِحُكْمِه، ولا يَبْغِي أجْرًا عَلَى حَجْمِه[79] "

3-2. المثل: حجّة للاستدراج وتعزيز الخداع والاحتيال:

فرّق النّقاد بين الحجاج والمنطق، كون نتائج الحجاج في اللغة الطبيعية احتمالية وشبه منطقية، وليست بالضرورة من المسلّمات، كما أنه يقبل السفسطة، واللبس، والغموض، والتضمين، والخداع؛ لتحقيق التّواصل والإذعان، أمّا المنطق فنتائجه منطقية واضحة وثابتة، ولا يقبل الغموض، واللّبس، أو السفسطة، والمغالطات[80]. ويظهر الحجاج باستدراج الخصم وإذعانه في بنية المقامات بجلاء؛ كونها تنطوي على حيلة يمارسها البطل؛ لتحقيق غاية معينة أو تحصيل منفعة، فالاستدراجات كما يصفها ابن الأثير "مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال"[81]. وقد وَظّف الحريري الأمثال السائرة؛ لإقناع الخصم واستدراجه للنجاح في خديعته.

ولأنَّ المقامة في بنيتها خداع واحتيال، وسعي لاستعطاف الجمهور واستدرار أموالهم، كان من لوازم الخدعة ومتطلبات الحيلة أن يرفض الفتى مسالمة الحجّام، فاستمرا في الحجاج والسباب والشتم والاعتذار، وصولا إلى تباكي الفتى وإعواله، والشكوى من الفقر، وضيق الحال دون كلل أو ملل، حتى أظهر الحجّام تعاطفه وخضوعه لعبرات الفتى على مسامع الناس، وفي الوقت ذاته أكد عجزه وقلة حيلته في إغاثته، فحاجته إلى المال لا تقل عن حاجة الفتى، فكان جوابه للتفلت بمثل قائلًا: "هَيْهَاتَ، شَغَلَتْ شِعَابِي جَدْوَايَ"[82]، أي ليس يفضل عنه ما يصرفه لغيره. وليزيد من درجة إقناعه، توجه هو نفسه إلى الجمهور ونظم أبياتا يستدرجهم بها، ويشكو ضعف حاله، وشظف عيشه وبلواه.

وكانت النتيجة: رقّت قلوب الحضور، وانهالت على السّروجي الأموال، وكان الحارث أول من رق واستفتح بالعطاء.

واللّافت للنظر هو ما خاطب به الحارث نفسه؛ لشدة اقتناعه بوجوب تقديم الدراهم للحجّام: "فنَفَحْتُهُ بِدِرْهَمَيْن، وقلتُ لا كانا ولو كان ذا مَيْنِ"[83] بمعنى، حتى لو كان الحَجّام كاذبًا، فلنْ يتردد الحارث في تقديم المال له وسدّ حاجته .

وعليه فخضوع الحارث والجمهور كان خضوعًا لسحر البيان، وإذعانًا لسلطة الكلمة، والإحساس بالضعف أمام قوة تعبير السروجي عن شكواه بالنظم والأوزان، وقوة تأثيره في توجيه دفة الخطاب بما يخدم حاجته. ثم تقاسم الفتى والحجّام (السروجي وابنه) المال في الخفاء، وأنشد مفتخرًا بخداعه وختله وفوزه بما أراد على مسمع الحارث[84]:

كَيْفَ رَأَيْتَ خِدْعَتِي وَخَتْلِي ومَا جَرَى بَيْنِي وبَيْنَ سَخْلِي

حتَّى انثَنَيْتُ فائِزًا بالخُصَلِ أرْعَى رِيَاضَ الخَصْبِ بعْدَ المَحْلِ

ورغم تقريع الحارث له، لابتذاله ونذالة أسلوبه، واستدراجه العباد، لم يأبه السروجي بتقريعه، بل دافع واحتج لنفسه بمبدأ من مبادئ التداولية النفعية، التي تربط الأسباب بالنتائج وتركز على تحقيق أكبر قدر من المنفعة. والسلوك الأفضل هو الذي يحقق للإنسان أقصى منفعة ممكنة، وقد لا يهم الوسيلة التي يحقق بها مأربه، لذا لجأ السروجي إلى تحقيق غاية نبيلة (سدّ الفقر) بوسيلة خسيسة (الخداع والاحتيال).

وقد ردّ السّروجي على الحارث، ولخّص مبدأه ودفاعه بمثل، يجسّد حجّة التّبرير قائلا: "كُلُّ الحِذَاءَ يَحْتَذي الحَافِي الوَقِع"[85]. أي إنَّ الحافي الوقع الذي يمشي على الحجارة الحادةّ فتؤذيه، ينتعلُ بكل نعل وجدها، والمهم تحقيق النفع وتحصيل نتائج مرضية؛ فالغاية تبرر الوسيلة.

4-2. المثل وسيلة للإقناع بقضايا النّقد الأدبي:

تجد الدّراسة بأنّ المثل كان وسيلة للإقناع بقضايا نقد أدبية، وذلك في المقامة الحلوانيّة، حيث يثير الحريري قضية نقدية في المفاضلة بين أصحاب الأدب، وتفضيل بعضهم على بعض، وإثبات التفوق. وقد كسر توقع المتلقي وأثار الدّهشة حين وظف الأمثال: "اسْتَسْمَنْتَ يَا هَذَا ذَا وَرَم"، "ونَفَخْتَ في غَيْرِ ضَرَم"[86]. ومما يثير الدّهشة ويصعدّ من قوّة هذه الأمثال الحجاجيّة كونها جاءت تعقيبًا للسّروجي على بيت مستملح للبحتري اختاره أحد الجلساء نموذجا للإبداع في التشبيه، فما كان من السّروجيّ إلاَّ أنْ قلّل من شأن البيت، بل وحكم بضياع الأدب، رغم مكانة البُحتريّ الأدبية المعروفة التي شُغِلَ بها النّقادُ، حتى قامت معارك بين مؤيد لمذهب البُحتريّ التَّقليدي ومَذهب أبي تمام في التَّجديد.

وأكَّدَ السُّروجيُّ فكرته وحكمه بضعف البُحتري بترديد المَثَلَين السَّابقَين في قوله: اسْتسْمَنْتَ ذا وَرَمْ، والمثل يُقال؛ لتعظيم ما ليس بعظيم، وقوله: نَفختَ في غَيْرِ ضَرَمْ، مثل لمن يضع الشَّيء في غير موضعه.

يضطّلع المثل بدور سردي في المقامة بما يختزله من حجج مضمرة فيه وهو ما يظهر من نتائج مضمرة في الأمثال السابقة على النحو الآتي:

ن1. أن السروجي، أو الحريريّ يهوّن من شأن البحتري.

ن2. البحتري لا يستحق المدح والثناء، وأدبه ليس بالشيء العظيم، وليس ذا قيمة وهو دون ما قيل عنه.

ن3. وما أذيع في شأن البحتري إنّما كان لعلة وضعف، وليس لتفوق وإبداع، تماما كالورم المنتفخ يحسبه الناظر سمنة وعافية، وهو ليس كذلك .

ن4. لا يستحق البحتري تلك المكانة، ولا الموضع الذي وصل إليها.

وليعزّز الحريري على لسان بطله السروجي ثقته بنفسه، ويثبت تفوّقه على أرباب الأدب يدهشنا مرة أخرى حين ينتصر لفريق المحدثين المجددين في الأدب، فينأى عن المقارنة بين أبي تمام مثلًا وهو رمز المجدّدين والمعارضين لمذهب البحتري، بل يأتي بعجائب الأدب من نظمه الخاص؛ ليبهر الجمهور ويستميلهم .

وليقطع الشّكَ باليقين، ويزيد في إذعان الجُلساء، وجذبهم؛ لسماعه وتغيير الصورة النمطية في أذهانهم في انحسار الأدب والإبداع في فئة معينة، نجده يعلي راية التحدي والتشويق من خلال المثل: "يَدُ الحَقِّ تَصْدَعُ رِدَاءَ الشَّكِّ"[87]. فالحق يكشف الشك ويزيل اللبس، وهو عنصر مهم؛ لتحقيق الإقناع وإثبات الحجة. ثم يخضع لامتحانات أدبية، وينجح فيها. وبذلك هيأ الجمهور نفسيًا وجعلهم يقبلون عليه بكل أذن صاغية؛ ليكشف لهم جواهر منطقه وسحر بيانه. فكانت النتيجة: "حَارَ الحاضِرُون لِبَدَاهَتِه ... وذَهَبَ مُسْتَصْحِبًا القُلُوبَ مَعَه"[88].

في قوله "يَدُ الحَقِّ تَصْدَعُ رِدَاءَ الشَّكِّ".

ن1. الحريري يتحدى البحتري والمحدثين

ن2. الحريري/ السروجي يثق بنفسه وبقدرته على الإبداع والتفوق والإتيان بما هو جديد

ن3. الحريري يتفوق على البحتري

النتيجة النهائية: استمالة الجمهور وإذعانهم: "ذَهَبَ مُسْتَصْحِبًا القُلُوبَ مَعَه".

وفي الإطار نفسه يؤكد الحريريّ في المقامة المراغية نظرته النقدية السابقة وإثبات القدرة والتفوق، وأنَّ باب الإبداع مفتوح دائمًا ومتجدد، وكأنه يرفض مذهب عنترة حين قال: هل غادر الشعراء من متردم... ويُنكر ما أجمع عليه جلساء الديوان في المراغة وفرسان الكتابة، أنَّه لم يبق منْ يُنقِّح الإنشاء... ولا يتوجب على الأديب المبدع التمسك بما هو قديم فقط وتعظيمه وتقليده، والأصل أن يظهر شخصيته، ويبرز تفوقه وقدرته على الابتكار والإبهار، وليس ذلك ببعيد ولا معجز. لذا استشاط السروجي غضبًا، ونَهَرَ الجلوسَ مُنْكِرًا تعظيمَ القدماءِ قائلًا: "وَعَظَّمْتُمْ العِظَامَ الرّفَات"[89]، كما أنكر احتقار جيل المحدثين وغمط حقهم قائلا: "وغَمَصْتُمْ جِيْلَكُم الذينَ فيْهِم لَكُم اللَّذَّات".

ولتمكن تلك الفكرة في الأذهان أصبحت من المسلمّات التي لا مجال فيها للجدال، لذا أعرب ناطورة الديوان عن شكِّه وعدم ثقته البتة في التَّفوق على القدماء حين قدم السُّروجي نفسه وتحدى؛ ليثبت حججه ووجهة نظره، فقال الناطورة : "يَا هَذا إنَّ البُغَاثَ بِأرْضِنَا لا يَسْتَنْسِرُ"، وهو مثل وأصله: "إنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ" [90]، يُضرب للضعيف عندما يصبحُ قويًا، وقد غير الناطور صفة المثل من الإثبات إلى النفي" لا يَسْتنْسِرُ" مؤكدًا بذلك ضعف السّروجي والمحدثين

عامة، وعجزهم أمام عظمة القدماء، بل إن محاولة معارضتهم أو الإتيان بما هو مختلف عنهم ستكون نتيجته الحتمية الفضيحة." فَلَا تُعَرِّضْ عَرْضَكَ لِلْمَفَاضِحِ ...".

فجاء رد السُّروجي الفوري بمثل رفع سقف التَّحدي وأدهش الجمهور، وهو مثل ينطوي على ثقة عالية بالنَّفس وبالجيل، ويؤكد القدرة على النَّجاح والفوز بالتَّحدي وصولًا إلى الإذعان، فقال: "كُلُّ امْرِئٍ أعْرَفُ بِوَسْمِ قِدْحِه"، ثم خاض الاختبار وكتب رسالته حسب الشُّروط المطلوبة منه، ونجح وأذهل الجمهور حتى وصل خبره إلى الوالي، فأُغدقت له العطايا من كلّ حوب وصوب حتى قال: "حَسْبِي، حَسْبِي". ومما سبق نجد بأن ترتيب التَّحدي وحجاجيَّة المثال تأتي على النحو الآتي :

الجمهور: يا هذا إنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنَا لا يَسْتَنْسِرُ (تشكيك وتثبيط)

السّروجي: كُلُّ امْرِئٍ أعْرَفُ ب

وَسْمِ قِدْحِه (ثقة وتحدٍ)

ن1: انتصار للمحدثين وتغيير فكرة تقديس كل ما هو قديم، ومحاربة رفضهم التجديد والابتكار.

ن2: عطاء وأموال

وقد عزز الحريري مكانته، ورفع شأن نفسه، وأكد فرضيته النقدية في قدرة المحدثين وإبداعهم أيضا في المقامة الإسكندرية، إذ عبّر الحارث عن ندمه؛ لعدم إخبار القاضي عن السروجي، وكشف هويته رغم أنَّه محتال، فقال: "غَشِيَتْنِي نَدَامَةُ الفِرَزْدَق حِيْنَ أَبَانَ النَّوَّار، والكَسْعِيّ لَمَّا اسْتَبَانَ النَّهَار" [91]. وهو مثل يقال في الندامة. واللافت أنَّ ندم الحارث ليس لأنَّ السُّروجي محتال أو لينال عقوبته جزاء احتياله على القاضي، بل لإعجاب القاضي به بعد ذهابه، فودَّ الحارث لو أنَّه أخبر عنه، وكشف هويته؛ ليزيد القاضي في إكرامه.

والمفارقة في توظيف هذا المثل أنه قيل بعد أن انطوت الحيلة على القاضي حتى حاد عن الحق، ولم ينصف الزوجة وحكم للسروجي وقلب موازين العدل وانحاز للؤم لا الكرم، وذلك حين سمع أشعار البطل، فأذعن لسلطة بيانه وجواهر كلامه، متجاوزًا احتياله وغير آبه به رغم علمه بما جرى.

وبذا تحققت غاية البطل التي صرح بها أول المقامة حين أعلنَ "أَنَّ لَوَازِمَ الأَدِيْبِ الأَرِيْبِ أنْ يَسْتَمِيْلَ قاضَيَهُ ويَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيْه..؛ لِيَشْتَدَّ ظَهْرَهُ عندَ الخِصَامِ وَيَأْمَنَ مِنْ جُورِ الحُكَّام" وقد كان.

وبهذا نستنتج من المثل الذي ساقه الراوي/الحارث تعبيرا عن ندمه ما يلي:

ن1. إعلاء قيمة السروجي (الحريري).

ن2. أثر الإبداع والتجديد وسلطة الأدب التي تفوق سلطة الحكام والقضاة .

وفي المقامة الشعرية ألزم الحارث نفسه الستر على الوالي، ووعده بأن لا يفتضح أمره بين الناس بعد أن كشف دهاء السروجي وخداعه، بعد أنْ سحره في المساجلة الشعرية بينه وبين غلامه لافتًا النّظر إلى قضية السرقات الأدبية وانتحال الشعر. فوجَّهَ الشيخ(السروجي) التهمة للغلام بانتحال شعره، وبتر أجزاء منه، فدافع الغلام بعد عرض ما لديه من نظم ومقارنته بما عند الشيخ، فقال مثلين دفاعًا عن نفسه وردًّا للتهمة: "إنَّمَا اتَّفَقَ تَوَارُدَ الخَواطِرِ، كمَا يَقَعُ الحَافِرُ عَلَى الحَافِرِ". تضرب لتوافق الأشياء، والتوارد بين الشاعرين: أن يقول كل منهما ما قاله صاحبه من غير أن يكون اطَّلع عليه، ومأخوذًا من ورود الحَيَّين الماء من غير مواعدة.

وقد ألزم هذا المثل الوالي بأن يتروى ولا يتعجل في إصدار الحكم على الغلام إلا بعد التيقن واختبار كليهما بالارتجال، فأبدع كلاهما، ثم شكا السروجي، وأظهر حاجته حتى استدرَّ عطف السلطان، وأخذ من أمواله، وليتقي السُّروجي شرَّ السلطان بعد كشف الحيلة، أرسل له مثلًا مع الراوي/الحارث بمثابة سخرية وتهديد وإفحام قائلًا: " بيَّنَ لَهُ غَبَاوَةَ قَلْبِهِ، وتِلْعَابِي بِلُبِّهِ؛ لِيَعْلَمَ أنَّ رِيْحَهُ لاقَتْ إِعْصَارًا"[92]. وقد حمل المثل رسالة قوية وتهديدًا يرى الوالي من خلاله السروجي كالإعصار الشديد، يثير الغبار، ويأخذ كل ما في طريقه، وإنْ كان الوالي شديدًا فهناك من هو أشدُّ منه.

وقد فهم الوالي فحوى هذا المثل وما يتضمنه من ترهيب ومرارة التهديد من أديب سليط اللسان، فأذعن وأناخ، وصرّح قائلا: "لَولَا حُرْمَةُ أدَبِهِ لأَوْغَلْتُ في طَلَبِه"[93]، بل واستجدى وفاء الحارث وبالغ في طلب الستر، حتى طمأنه الحارث وبالغ في إظهار وفائه، وحفظه العهد مستحضرًا وفاء السموأل الذي آثر أنْ يقتل ابنه على أنْ ينقضَ عهده ويخون أمانته التي أودعه إياها امرؤ القيس(الدروع)، فقال الحارث:

"وَوَفَّيْتُ لهُ كَمَا وَفَّى السَمُوَأل"[94]. وهنا يظهر فعل الكلام المثلي وأثره التداولي في سلوك المتلقي وطريقة تفكيره وتجاوبه مع مغزى المثل ودلالاته، وهوما دفع الوالي؛ لاتقاء شر السروجي ومواجهة إعصاره.

وقد ترددت تلك النّهاية التي تظهر غياب السُّروجي/ الحريري وبقاء أثره وسحر بيانه الذي يشغل عقول جلسائه ويدهشها، ويتحكم في سلوكها وتفكيرها، مرة بالأحاجي والألغاز ومرة بالنَّظم والغريب وكتابة أشكال متنوعة من الرسائل وغيرها ...

2-5. المثل: حجّة من حجج القوّة/ الهجاء، والتّوبيخ، والتّهديد:

فرض المثل في مقامات الحريري سلطته وحضوره في سياقات عدة، وشكل آلة من آلات بسط القوة وإرغام الخصم، بوسائل تتوزع بين تحدٍ ونقدٍ، أو سخرية وتهديد ووعيد كالذي شهدناه في تهديد السروجي للوالي في المقامة الشعّرية، وأحيانا يفرض سلطته بما يحويه من سباب، وشتم واحتقار ومقارنات.

وقد جاء المثل في المقامة الفارقية حجة ففرض سلطته بما يحويه من تقريع وهجاء مقذع أرعب السّروجي به الجمهور، واستدرَّ أموالهم عندما رأى ترددهم في البذل، وتشاورهم في العطاء؛ لتكفين ميت، وقبل أنْ يستدرَّ أموالهم أبان عن حاله، وأكَّد عجزه عن أداء تكاليف الكفن، فوظف المثل:" لوْ كَانَ في عَصَايَ سَيْر"[95]، مؤكدًّا أنّه يود صنع المعروف، ويضيق وجده عن التوصل إليه، ولو كان فيه قدرة لما لجأ إليهم .

ولمّا رأى توانيهم، قال مُوبِّخًا ومستفتحًا تقريعه بالمثل: " يا يَلامِعَ القَاعِ ويَرَامِعَ البِقَاع" [96]. وهما مثلان يضربان لمن يطمع منظره ويخلف مخبره. فصورتهم توحي بكرمهم ونبلهم وهم في الحقيقة كالسَّراب الذي يحسبه الظَّمآن ماء، وكالحجارة البيض التي لها بريق، ولا قيمة أو خير يرتجى منها.

وختم تقريعه أيضًا بمثل؛ ليؤكد المعنى ويمعن في تعييرهم ونبذ بخلهم قائلا: "أُفٍ لِمَنْ تَنْدَى صِفَاتِه، ولا تَرْشَحُ حَصَاتِه"[97]. وهو شبيه للأمثال السابقة في الدلالة والإقذاع. ومن المعلوم أنَّ الهجاء بالأنساب والصِّفات سيما صفة الكرم والشَّجاعة يكون وقعه أشدُّ وطئًا وأبعدُ أثرًا وأكثرُ إيذاءً من هجاء الشكل والهيئة.

ومن هنا كانت النّتيجة الفورية لمّا بصرت الجماعة فصاحته، وغلظة لسانه، ومرارة هجائه، أجزلت له العطايا؛ لإسكاته ومخافة المزيد من كلامه المُؤذي. وكالعادة انطوت عليهم الحيلة، وكان له ما أراد، وقد استفاد من طاقة الأمثال الإقناعية، فدفعهم دفعًا للإذعان.

الخاتمة:

خلصت الدِّراسة إلى نتائج عدّة، من أهمها:

1. وظَّف (الحريريّ) الأمثال في المقامات كآلية حجاجية مقصودة لذاتها وغاية مهمة مكنته من عرض الأفكار للإقناع والتأثير، ومن ذلك خطابه لولده في الوصية: "وافقَهْ أمْثَالِي"[98]

2. وظَّف (الحريري) الأمثال بوصفها أدلة شبه منطقية وبراهين جاهزة في سياق الدِّفاع عن النَّفس ورد التُّهم في المنازعات، أو الهجوم، والهجاء، والتَّحدي، والتَّبرير والحوار، واستعملها أحيانًا كمقدمات وأسباب، وأحيانًا نتائج وردود أفعال.

3. نجح (الحريريّ) في توظيف الأمثال وإبراز قدرتها الإقناعية ونجاعة استعمالها لغاية الإقناع، وبسط سلطتها على نفس المتلقي وعقله وشعوره، ومن ثم إذعانه لمقتضاها. فحقق بها غاية الحجاج في الإقناع والاستمالة بمستواها العاطفي، والعقلي، والحسي، والأخلاقي، وصولًا إلى إنفاذ حِيَلِهِ ومخادعاتِهِ، واحتياله لكسب المال، وَلَي عنق الجمهور والسّاسة على حدٍ سواء.

4. شكّلت الأمثال مرتكزًا حواريًا هامًا، وركيزة حجاجية أصيلة في نقد الواقع وعرض الأفكار في السِّياق السِّياسي، والاجتماعي، والأدبي، والنَّفسي؛ لتظهر مقاماته بوسائل الحجاج المختلفة أكثر إقناعًا وتأثيرًا.

5. استمدت أمثال (الحريري) طاقتها الإقناعية وسلطتها كونها أمثالا سائرة، ومتداولة ومرتبطة بوعي الشعوب، ومعارفها، وخبراتها، وأخلاقها، وأعرافها، وبما تنطوي عليه من دلالات ورسائل تفهم ضمنا بالقياس على الحالة المشابهة لها، التي يصعب الاعتراض عليها، أو مخالفتها، أو الفرار من محتواها ورسائلها اللاذعة أحيانًا، أو المرشدة لأخذ العبرة وفهم الحياة أحيانًا أخرى. فكان للأمثال أثر كبير في إقناع المتلقي الخاص داخل المقامات أو المتلقي العام والقرَّاء في الأزمان التالية لها.

التّوصيات: دعوة الباحثين والدارسين إلى ضرورة تتبع المقامات؛ لإبراز الظاهرة الحجاجيَّة ولا سيما التّناص القرآني، أو الموروث الأدبيّ من جهتي الشّعر والنّثر والأمثال.

الهوامش:

1 ابن صالح، إبراهيم، وهند بنت صالح، الحكاية المثلية عند ابن المقفع، ط1، سلسلة فوانيس، دار محمد علي الحامي، تونس، 2003، ص102

2 صولة، عبدالله، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، في: الحجاج مفهومه ومجالاته ج1، ص26

3 فروم، هشام، الحجاج: مقاربة مفاهيمية نظرية، مجلة آفاق العلوم، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، مج6، ع2، 2021، (216-228)، ص220

4 علوي، حافظ إسماعيلي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010، ج1، ص4.

5 العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2010، ص12.

6 السعدي، عبد الرزاق، المثل العربي (دراسة لغوية تحليلية)، المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج7، ع2، 2020، (475-497)، ص479

7 القيرواني، الحسن ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط5، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، 1981، ص280

8 العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، ص81

9 صولة، عبدالله، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص336.

10 بدر بن علي العبد القادر، حجاجية المثل عند أكثم بن صيفي دراسة تحليلية، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، عدد19، 2016، ص98.

11 الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط1، 2008، عالم الكتب الحديث، إربد، ص287

12 الزماني، كمال، حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد،2012، ص126.

13الملخ، حسن خميس، الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2015، ص195

14 الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص296

15 ابن المقفع، الأدب الصغير والكبير دار صادر، بيروت، ص27

16 أبو زيد، سامي يوسف، الأدب الجاهلي، ط2، 2015، دار المسيرة، عمان، ص320

17 أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، بيروت 1988، ص49

18 مقامات الحريري، ص170

19 مقامات الحريري، ص175

20 مقامات الحريري، ص192

21 هامش، مقامات الحريري، ص192

22 مقامات الحريري، ص193

23 مقامات الحريري، ص 536

24 مقامات الحريري، ص537

25 مقامات الحريري، ص 546

26 مقامات الحريري، ص 537

27 مقامات الحريري، ص 538

28مقامات الحريري، ص539.

29 أمثال المولدين: هي أمثال شائعة في الثقافة العربية، وهي أمثال ليست من أصل عربي فصيح، بل ظهرت في عصور لاحقة في الشام والعراق بعد الفتوح وخاصة في العصر العباسي وما بعده. وهذه الأمثال وثيقة اجتماعية تؤرخ لوجدان المجتمع العربي ووثيقة أدبية أبدعها المجتمع العباسي بكل طبقاته. - مقامات الحريري، ص539

30 مقامات الحريري، ص 540

31 مقامات الحريري، ص540

32 مقامات الحريري، هامش، ص540

33 مقامات الحريري، ص540

34 مقامات الحريري، ص 541

35 مقامات الحريري، ص 541

36 مقامات الحريري، ص 542

37 مقامات الحريري، هامش ص242.
38 انظر، مقامات الحريري، ص542
39 انظر، مقامات الحريري، ص 543
40 مقامات الحريري، ص 545
41 مقامات الحريري، ص 545
42 مقامات الحريري، ص 545
43 مقامات الحريري، ص 546
44 مقامات الحريري، ص547.
45 بو قريمة، حكيمة، نظرية الأفعال الكلامية عند "أوستين" و"سيرل" ودورهما في البحث التداولي، حوليات الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف المسيلة، مجلد 1، عدد 1، 2013، ص181
46 العزوزي، شهيدة، السرد والحجاج في الحكاية المثلية، باب القرد والغيلم نموذجا، الرابط:-https://alantologia.com/tags/shxid/alyzuzi
– 47 صولة، عبدالله، الحجاج أطره ومنطلقاته، مسكيلياني للنشر، تونس، 2011، ص334.
48 مقامات الحريري، ص420
49 مقامات الحريري، ص 420
50 مقامات الحريري، ص 422
51 مقامات الحريري، ص 422
52 مقامات الحريري، ص 431
53 مقامات الحريري، ص424
54 مقامات الحريري، ص424
55 مقامات الحريري، ص425
56 مقامات الحريري، ص105
57 مقامات الحريري، ص272
58 مقامات الحريري، ص 473
59 مقامات الحريري، ص274
60 مقامات الحريري، ص275
61 مقامات الحريري، ص275
62 مقامات الحريري، ص276
63 مقامات الحريري، ص277
64 مقامات الحريري، ص277.
65 مقامات الحريري، ص277
66 مقامات الحريري، ص278
67 مقامات الحريري، ص278
68 مقامات الحريري، ص278
69 مقامات الحريري، ص278.
70 مقامات الحريري، ص 511

71 مقامات الحريري، ص512
72 مقامات الحريري، ص 513
73 مقامات الحريري، ص515
74 مقامات الحريري، ص 514
75 مقامات الحريري، ص 515
76 مقامات الحريري، ص515.
77 مقامات الحريري، ص 518
78 مقامات الحريري، ص 519
79 مقامات الحريري، ص517.
80 اعبيدة، حميد الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، في: الحجاج كمفهومه ومجالاته، ج1، ص674.
81 ابن الأسثير، ضياء الدين، (937هـ)، المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار النهضة، مصر، 1974، ص64.، ج2، ص54.
82 مقامات الحريري، ص518.
83 مقامات الحريري، ص 520
84 مقامات الحريري، ص 521
85 مقامات الحريري، ص521
86 مقامات الحريري، ص28
87 مقامات الحريري، ص29
88 مقامات الحريري، ص31
89 مقامات الحريري، ص58
90 مقامات الحريري، ص60
91 مقامات الحريري، ص98
92 مقامات الحريري، ص234
93 مقامات الحريري، ص236.
94 مقامات الحريري، ص236
95 مقامات الحريري، ص202
96 مقامات الحريري، ص202
97 مقامات الحريري، ص202
98 مقامات الحريري، ص 537

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- ابن الأثير، ضياء الدين، (937هـ)، المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، ترجمة أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار النهضة، مصر، 1974
- بو قريمة، حكيمة، نظرية الأفعال الكلامية عند "أوستين" و"سيرل" ودورهما في البحث التداولي، حوليات الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف المسيلة، مجلد 1، عدد 1، 2013
- الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2008
- الزماني، كمال، حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد،2012
- أبو زيد، سامي يوسف، الأدب الجاهلي، ط2، دار المسيرة، عمان، 2015
- السعدي، عبد الرزاق، المثل العربي (دراسة لغوية تحليلية)، المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج7، ع2، 2020، (475-497)
- صولة، عبدالله، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، في: الحجاج مفهومه ومجالاته، مسكيلياني للنشر، تونس، 2011
- ابن صالح، إبراهيم، وهند بنت صالح، الحكاية المثلية عند ابن المقفع، ط1، سلسلة فوانيس، دار محمد علي الحامي، تونس، 2003
- العبد القادر، بدر بن علي، حجاجية المثل عند أكثم بن صيفي دراسة تحليلية، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، عدد19، 2016
- اعبيدة، حميد، الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، في: الحجاج كمفهومه ومجالاته، المركز الأكاديمي للتوثيق والتنشيط والإنتاج التربوي، المغرب، 2001
- العزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2010
- العزوزي، شهيدة، السرد والحجاج في الحكاية المثلية، باب القرد والغيلم نموذجا، الرابط: https://alantologia.com/tags/shxid-alyzuzi/
- علوي، حافظ إسماعيلي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010

- أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، بيروت، 1988
- فروم، هشام، الحجاج: مقاربة مفاهيمية نظرية، مجلة آفاق العلوم، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، مج6، ع2، 2021، (216-228)
- القيرواني، الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط5، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، 1981
- ابن المقفع، عبد الله، الأدب الصغير والكبير دار صادر، بيروت، د. ت
- الملخ، حسن خميس، الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2015